مجلة الشهاب • المجلد: 07، العدد: 03 (2021م) • ص ص 561 - 574
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

دور البعثات العلمية المزابية إلى تونس في إعادة إنتاج القيم الوطنية بعثة أبي اليقظان 1914 ـ 1926م نموذجاً

The Role of the Mozabite Scientific Missions to Tunisia in Preserving National Identity. The mission of Abu Al-Yaqdhan 1914-1926 as a Model

ط.د/ حمو عبد الله عيسى *
جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)
aissahammou@yahoo.fr

د/ بلحسين رحوي عباسية
جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)
abelhoa2018@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/03 تاريخ القبول: 2021/09/21 تاريخ النشر: 2021/11/14

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: لقد كانت سياسة فرنسا في طمس الهوية الدينية والوطنية من الجزائريين متماثلة بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، والمجهودات التي قام بها رجال الإصلاح بالجزائر في سبيل التصدي لهذه السياسة واضحة وقد أتت أكلها، وتعد المؤسسات التربوية والبعثات العلمية آلية استعملها رجال الإصلاح في سبيل الإصلاح الديني والاجتماعي، ولعلّ من أبرز البعثات العلمية لسكان الجنوب الجزائري البعثة العلمية المزابية إلى تونس، والتي ترأسها أبو اليقظان من سنة 1914م إلى 1926م.

في هذا المقال سنعرض نشأة وتطوّر البعثة العلمية المزابية إلى تونس، إلى جانب النظام التربوي والمقررات التي اِلتز

الكلمات المفتاحية:

البعثة العلمية؛ النظام التربوي ؛ وادي مزاب؛ أبو اليقظان؛ القيم الوطنية.

Abstract : France's policy of obliterating the religious and national identity of the Algerians has been identical between the South and the North, and between the East and the West. The efforts made by the reformists in Algeria to confront this policy are clear and have paid off. Educational institutions and scientific missions were used by reformers for the sake of religious and social reforms. Among the most prominent scientific missions of the residents of southern Algeria is the Mozabite scientific mission to Tunisia, which was headed by Abu Al- Yaqdhan from 1914 to 1926.

This article deals with the emergence and development of the Mozabite scientific mission to Tunisia, along with the educational system and the decisions that the members of this mission committed to. It displays its founders, scholars and leaders' educational role and how they encouraged the students to preserve their religion and national personality. It also explores the participation of the members of the scientific mission in the Tunisian Free Constitutional Party and its effect on reproducing the national values.

Keywords: the scientific mission; the educational system; the M'zab Valley; Abu Al- Yaqdhan ; the national values.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

للجنوب الجزائري أثر كبير ودور مهمّ في مقاومة المستعمر الفرنسي، بكل الطرق والوسائل المتاحة لديه، ومن أهم هذه الوسائل التي تصدّرت المقاومة ضد المستعمر الفرنسي المؤسسات التربوية. فكانت الوسيلة الهامة لتبصير الجزائريين في الجنوب بخطر الاستعمار، وكانت بالمرصاد ضدّ كل المخططات الاستعمارية الرامية مِن طمس الهوية الوطنية وترسيخ مبدأ الجزائر فرنسية.

عانت المؤسسات التربوية المضايقات الاستعمارية والتي وصلت إلى غلقها وتشريد أعضائها، فكانت البعثات العلمية إلى خارج الجزائر الوسيلة البديلة للحفاظ على العلم والدين والوعي بالقضية الجزائرية لدى الشباب الجزائري، ولعلّ من أبرز هذه البعثات العلمية، البعثة العلمية المزابية الأولى إلى تونس والتي أسسها أبو اليقظان في الفترة الممتدة بين 1914–1926م. فكيف كانت نشأة وتطور هذه البعثات؟ ومن هم المؤسسون الأوائل؟ وفيمَ تمثل دورهم التربوي والديني والوطني؟ وهل كان لها دور بارز في إعادة إنتاج القيم الوطنية؟

2. مزاب جغرافياً وحضارياً:

يقع وادي مزاب بصحراء الجزائر ويبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي ستة مئة كيلومتر، يتميز مناخ وادي مزاب بخصائص البيئة الصحراوية، ويقع على هضبة تدعى "الحمادة" تنحدر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وترتفع على مستوى سطح البحر بين 300 و800 م.

ويقع وادي مزاب بين خطي عرض (31–15) شمال خط الاستواء إلى 33^{0} وخطي طول (2–30) شرقاً، كما تبلغ مساحته حوالي 2750000 هكتار (coya,a ,1879 , p 03).

تدعى المنطقة التي يقع فيها وادي مزاب ببلاد الشبكة، سميت كذلك لأنها تتكوّن من جبال ذات ارتفاع عالٍ نسبياً، وتخترق هذه الجبال أودية ضيّقةٌ، وبينها شعاب كثيرة.

يضم وادي مزاب سبعة قصور، خمسة منها على ضفاف مجرى الوادي، وإثنين بعيدين، وهي حديثة المنشأ بالنسبة للقصور القديمة المندثرة في الوادي. أولى هذه القصور الحديثة العطف (تجنينت) بالبربرية والتي تأسست سنة (1012م–402هـ)، ثم بنورة (آت بنور) (1065م–457هـ)، غرداية (تغردايت) (1085م–477هـ)، بني يسجن (آت يسجن) (1321م–720هـ)، مليكة (آت مليشت) (1355م–756هـ)، ثم تبعتها القرارة (لقرارة) (1631م–1040هـ) وتبعد عن مجرى وادي مزاب بحوالي مئة وعشرون كيلومتر، و بريان (آت ابرقان) (1679م–1101هـ) وتبعد عن المجرى بحوالي أربعون كيلومتر. (يوسف الحاج سعيد، 2006: ص16–18)

لقصور وادي مزاب شكل مرفولوجي خاص موحد، فهي كلها تشبه الهرم، حيث تشترك في مبدأ الطابع الإسلامي العربي، ولهذا أصبحت مدن وادي مزاب ذات طابع معماري إسلامي متميز، بمعنى أنّ كل ما له

علاقة بالدين الإسلامي يحتلّ أعلى الهضبة، ولهذا كانت المساجد هي التي تأخذ هذا الموقع الرفيع، وكل ما له علاقة بالحياة المادية يأخذ مكانه في أسفل الوادي كالمنازل والأسواق. (Ben Youcef, b,1992 , p 32).

يتكون قصر مزاب من عدّة منشآت ومباني تتدرّج من أعلى الهضبة، ولكلٍ منها وظيفة محدّدة إلاّ أنها تكوّن مع بعضها البعض نسقاً متكاملاً، حيث تتشكل هذه المورفولوجية من ثلاثة عناصر رمزية تغذي المخيال الاجتماعي للمزابيين وهي: البئر لضمان الحياة، البرج لضمان السلم، المصلى لضمان الدين والمذهب. وهذا كله في صورة هندسية معمارية متميّزة. (خواجة، عبد العزيز، 1999،ص106).

لقصور وادي مزاب بيئة حضارية وتاريخية متجدّرة، وأصالة مستمدّة من الدين الإسلامي الحنيف، وقد أنتجت للجزائر وللإسلام أعلاماً متميّزين تركوا بصمةً علميّة وحياتيّة في المجتمع الجزائري، ولعلّ من أبرز هؤلاء هو إبراهيم بن عيسى حمدي (أبو اليقظان) والذي كان له الفضل في تأسيس البعثة العلمية المزابية الأولى إلى تونس.

فمن هو أبو اليقظان؟ وما أبرز إسهاماته؟

3. أبو اليقظان: مؤسس البعثة العلمية

يعدّ أبو اليقظان أحد رُواد الحركة الإصلاحية الجزائرية، وهذا لتبنيه التربية والتعليم وسيلةً لبعث النهضة الوطنية الجزائرية الحديثة، وهو من بين أحد زعماء الإصلاح في الجزائر، فقد كان معلّماً ومربياً ومناضلا ومجاهدا على جبهات كثيرة منها الجمود الفكري، والاستعمار الفرنسي الغاشم، والبدع المفسدة للدين والقيم والأخلاق.

3. 1. إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: نشأته وتعليمه:

ولد أبو اليقظان في 29 صفر 1306هـ الموافق لـ 01 نوفمبر 1888م في مدينة القرارة بوادي مزاب، بدأ مشواره العلمي بالكتّاب في مسقط رأسه بالقرارة، حيث حفظ القرآن الكريم، وإستظهره عند الحاج إبراهيم بن كاسي، ثم درس في معهدَيْ الشيخ الحاج عمر بن يحي، والشيخ الحاج إبراهيم لبريكي، انتقل إلى معهد قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش في بني يزقن بمزاب سنة 1325هـ/1907م، وكان من أبرز تلامذته، وفي سنة 1330هـ/1913م انتسب إلى جامع الزيتونة بتونس، وجلس لفطاحل علماء الزيتونة بتونس لتلقي العلم.(معجم أعلام الإباضية، 1999م، المجلد الثاني، ص52).

3. 2. إسهاماته في المجتمع الجزائري:

دخل أبو اليقظان في معترك الحياة الاجتماعية والسياسية ونضج علمياً، وأدرك أن العلم عنصر جوهريٌ في إثبات الهوية الدينية والوطنية، وهو السبيل الأقوى لإثبات وجود الإنسان بوطنه، فهو يقول: " لما رأيت المستوى العلمي والفني منحطاً في بلادنا وسجّلت عروق قلبي بأن عواصف هوجاء تنذر بالخطر وتتقارب إلى بلادنا في أثناء الحرب الأولى شعرتُ بأنّ خطرا أخذ يحبو نحو بلادنا لا ينجينا منه إلاّ الحصانة العلمية والفنية والخلقية بتكوين كتلة من الشباب متينة متراصة لتدرأ عن البلاد ما أتوقعه من الأخطار المهددة لها

بأساليب عصرية لا التواء فيها."(إبراهيم أبو اليقظان، مخطوط،ورقة3-4) ، كما أدرك أبو اليقظان أن اللغة العربية والمحافظة عليها هو سبيل أساسيٌّ لنهضة الإسلام والجزائر، من أجل هذه الحقيقة قام أبو اليقظان بالجهاد من أجل العلم ونشره وتحفيز الناس إلى طلبه، فأسّس أوّلَ بعثةٍ علمية خاصة للطلبة المزابيين إلى تونس في بداية سنة 1914م، وذلك لمواجهة نشر الثقافة الفرنسية وتحريف أصلة المجتمع الجزائري والدين الإسلامي، فقد كان لأبي اليقظان أثراً على النهضة الإصلاحية في الجزائر.

في نهاية سنة 1914م رجع أبو اليقظان إلى الجزائر لاندلاع الحرب العالمية الأولى فأسس معهده بالقرارة على الطريقة الحديثة للتعليم إلى سنة 1917م بعد توقف الحرب عاد إلى تونس في بعثة علمية ثانية.

بعد رجوع أبي اليقظان إلى تونس سنة 1917م لازم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وكان من المؤسسين للحزب الدستوري الحر بتونس مع زميله الشيخ إبراهيم أبي إسحاق(محمد علي دبوز، 1978م،ص235).

في سنة 1926م أنشأ أبو اليقظان أول جريدة عربية باسمه تحت عنوان (وادي ميزاب)، أرادها لتكون لسان حال الفكر الإسلامي عموماً والجزائري خصوصاً (ملتقى الذكرى ص 347).

في سنة 1931م كان أبو اليقظان عنصراً مؤسساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتخب عضواً عاملا في مجلسها الإداري سنة 1934م، وكان نائبا لأمين المال فيها.(ملتقى الذكرى ص 198).

في سنة 1931م أنشأ أبو اليقظان المطبعة العربية بالجزائر العاصمة في شارع (روفيقو) رقم 70، (ذبيح الشريف حالياً) وهي مَعْلم من معالم الصراع بين الحرف العربي والاستعمار اللاتيني الصليبي في الجزائر (محد ناصر، 1996،ص 290).

3. 3. أهم مؤلفاته وآثاره الفكرية:

من آثاره الفكري تأليفه لحوالي ستين (60) عنواناً في مختلف الفنون، بين كتاب وبحث ورسالة، منها المخطوط ومنها المطبوع، من بينها:

1) "سلّم الاستقامة" في الفقه بأجزائه السبعة (مط).
2) " سليمان باشا الباروني " في جزأين (مط).
3) " تاريخ صحف الجزائر العربية" (مخ).
4) " إرشاد الحائرين" (مخ).
5) " ملخص تاريخ الجزائر" (مخ).
6) " ديوان أبي اليقظان" (مط).

(معجم أعلام الإباضية، 1999م، المجلد الثاني، 53).

ويعتبر أبو اليقظان شيخ الصحافة الجزائرية، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، وهذا الجدول يبيّنها على التوالي:

اسم الجريدة	تاريخ الصدور	تاريخ التعطيل	أعدادها
وادي ميزاب	01 أكتوبر 1926م	18 جانفي 1929م	119
ميزاب	25 جانفي 1930م	05 فيفري 1930م	01
المغرب	29 ماي 1930م	09 مارس 1931م	38
النور	11 سبتمبر 1931م	02 ماي 1933م	78
البستان	27 أفريل 1933م	03 جولية 1933م	10
النبراس	21 جويلية 1933م	22 أوت 1933م	06
الأمة	08 سبتمبر 1933م	06 جوان 1938م	170
الفرقان	08 جويلية 1938م	03 أوت 1938م	06

(محمد، ناصر، 2018، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ج1، ن دار ناصر للنشر والتوزيع، ص 18)

وبعد هذا العطاء الفكري انتقل الشيخ الرسالي إلى الرفيق الأعلى يوم 26 صفر 1393ه الموافق لـ 30مارس 1973م. وترك لنا رسالة ضمنها الحرص على تربية النشء تربية إسلامية صحيحة وتكوين الرجال، تكويناً سليماً يقوى على المجابهة والفداء من أجل الوطن وإعداد جنود أشداء أقوياء مسلحين بالإيمان واليقين نبذين الذل والاستبداد والهوان.

4. البعثة العلمية المزابية إلى تونس:

4. 1. أصول البعثة العلمية الأولى 1914م :

شنت فرنسا حملة اندماجية واستئصالية للثقافة العربية والإسلامية بالجزائر، فبادر المشايخ والعلماء إلى التفكير في التصدي لهذه الحملة الاستعمارية ضدّ المبادئ والأصول والقيم الوطنية الجزائرية، فأنشأوا المدارس العربية ومن هذه المدارس الأولى، المدرسة الصديقية بمدينة تبسة، وهي أول مدرسة حرة عصرية في الجزائر(محمد علي دبوز، 1976،ص 266).

من الزعماء المؤسسين للمدرسة الصديقية بتبسة الشيخ عباس بن حمانة مع ثلة من التجار في مدينة تبسة مثل الحاج بكير العنق، وأخوه عمر(محمد علي دبوز، 1976، ص267).

أسس عباس بن حمانة وصاحبه الحاج بكير العنق الجمعية الصديقية سنة 1331هـ 1913م وفي نفس السنة أنشأوا المدرسة الحرة وسموها بـ: المدرسة القرآنية الأهلية الصديقية. واستقدموا لها أستاذين من مدينة صفاقس (تونس)، أما تلاميذ المدرسة الصديقية فكانوا أبناء أهالي مدينة تبسة وأبناء المزابيين التجار في مدينة تبسة (محمد علي دبوز، 1976، ص270-271).

اتسمت البرامج التربوية في المدرسة الصديقية بالتربية الإسلامية وزرع القيم الوطنية، وتعظيم العلم والاتحاد وإصلاح المجتمع. بعد ستة أشهر من انطلاق المدرسة أصدر والي قسنطينة (سينوري) أمراً بغلق المدرسة وحلِّ الجمعية الصديقية، وقد آل الأمر إلى طرح القضية على بساط البحث والمناقشة في مجلس النواب الفرنسي(الشيخ المولود أزريبي ، 1921، ص01). وبعد إصرار عباس بن حمانة على المدرسة كان مآله الاغتيال في 1914/07/16م(محمد علي دبوز، 1976، ص273).

4. 2. **أبو اليقظان في تونس**:

غامر أبو اليقظان بحياته عدّة مرات في سبيل العلم، فبعد أن درس في معهد الشيخ الحاج عمر بن يحي بالقرارة، ثم في معهد الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش، قام بمغامرة إلى مصر للدراسة بالجامع الأزهر، وليقيم بوكالة الجاموس(إقامة خاصة بالطلبة الإباضيين المغاربة، شارع أحمد بن طولون القاهرة) بالقاهرة لكن لم يسعفه الحظ في ذلك حيث كانت الظروف غير مواتية للهدف المنشود، رجع إلى معهد شيخه الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش بغرداية، وبعد سنة أعاد الكرة في مغامرة إلى تونس في ذي القعدة 1331ه الموافق لـ شهر أكتوبر 1913م والتحق به زميله الحاج عمر العنق فكانا النواة الأولى للبعثة العلمية المزابية إلى تونس (محمد علي دبوز، 1976، ص253–257).

4. 3. **بداية البعثة العلمية المزابية الأولى إلى تونس**:

كانت تونس قبلةً للجزائريين الذين يريدون الاستزادة من العلوم العربية، وكانوا أفرادا يسكنون مع أصدقائهم التونسيون، وفي شهر ماي 1914م أسّس أبو اليقظان أول بعثة علمية مزابية إلى تونس بنظام البعثات العلمية العصرية(أبو القاسم سعد الله، 1998، ص273). لمّا أغلقت المدرسة الصديقية من الاستعمار الفرنسي رأى أولياء التلاميذ المزابيون المقيمون في مدينة تبسة ضرورة إيجاد مدرسة كالمدرسة الصديقية لتعليم أبنائهم لكن كان الأمر مستحيلا، لتضييق الخناق عليهم من طرف المستعمر الفرنسي، فكان القرار أن يبعثوا أبناؤهم إلى تونس في كفالة أبي اليقظان، فكانوا التلاميذ الأوائل للبعثة العلمية الأولى في تونس.

4. 4. **الهدف والغاية من إنشاء البعثة العلمية**:

تعتبر تونس من البلدان العربية المزدهرة حضارياً و علمياً، حيث كانت المعاهد العربية ذات الثقافة العربية والإسلامية منتشرة فيها، ومن أهم حواضر المعرفة العربية والإسلامية جامع الزيتونة. البعثة العلمية مشروع تربوي علمي اجتماعي عصري، نشأت في ظروف كانت الجزائر تعيش قسوة الظلم من المستعمر الفرنسي، وتتخبط في انحطاط وجهل أراده الاستعمار كذلك.

وقد أنشأت البعثة العلمية لأهداف عامة منها:

- إرضاء الله تعالى.
- محو الجهل .

- طلب العلم والتفقه في الدين.
- إعلاء كلمة الله تعالى واسترجاع مجد الإسلام والمسلمين.

وكان لها أهداف خاصة. منها:

- الحفظ على القيم الوطنية في الأبناء.
- تكوين ملكات في مختلف العلوم والفنون.
- مسايرة العصر.
- إعداد جيل بتربية صحيحة يتحمل مسؤولية الإصلاح ويحارب الفساد.

5. النظام التربوي للبعثة العلمية المزابية في تونس:

بعد قرار انتقال تلاميذ المدرسة الصديقية بتبسة إلى تونس، اختار أبو اليقظان بالتشاور مع زميله الحاج عمر بن إبراهيم العنق، والأعيان المزابيين، المدرسة القرآنية العصرية لتلاميذ البعثة العلمية.

5. 1. المدرسة القرآنية العصرية:

5. 1.1. المقررات الدراسية في المدرسة القرآنية العصرية وآثارها في ترسيخ القيم الوطنية:

اعتمدنا في تحليل البيئة الدراسية في المدرسة القرآنية العصرية على مقابلة قام بها الشيخ محمد علي دبوز مع الشيخ أحمد توفيق المدني(أحمد توفيق المدني، عالم جزائري، خريج المدرسة القرآنية العصرية، وشغل منصب وزير الشؤون الدينية، تقلد عدة مناصب سياسية.) ، وذلك يوم الخميس 30 ذي القعدة 1385ه الموافق لـ 21 أفريل 1966م.

اعتمدت المدرسة القرآنية العصرية على تدريس القرآن الكريم وحفظه وتفسيره، والعلوم العربية، والشريعة، والرياضيات، واللغة الفرنسية، وكان مدير المدرسة الشيخ محمد أصفر(محمد علي دبوز، 1978، ص 175-176).

دراسة القرآن الكريم حفظا وتفسيرا يكسب الطالب المعرفة الدينية واحترام قداسة الوحي، فيكتسب الطالب هويته الدينية، وتقوى صلته بمصدر التشريع الإسلامي القرآن الكريم. أما اللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة يقول أحمد توفيق المدني درسنا كتاب جواهر الأدب للشيخ أحمد الهاشمي الذي يشتمل على تراجم الشعراء، والكتّاب في القديم والحديث، وأهم ما درسنا فيه رجال المعلقات وكبار الشعراء، كالمتنبي وأبي تمام ، والبحتري، كما درسنا الجاحظ، وابن المقفع، والمحدثين حافظ إبراهيم، وشوقي، والرصافي، ففي أمثال هؤلاء الأدباء تستنشق الخطاب القوي للشجاعة ونبذ الذل والاعتزاز بالشخصية العربية والإسلامية وهي قيم وطنية اتسم به الجزائري.

بالنسبة للعلوم العصرية الأخرى كالرياضيات وعلوم الطبيعة والحياة والتاريخ والجغرافيا، فتكسب الطالب سعة المعرفة العصرية وتجعل منه ابن زمانه، كما تكسبه معرفة أصوله وحقوقه المدنية، وحدود

وطنه المغتَصَب من المستعمر الفرنسي، مما يوقد فيه بغض الاستعمار وعزة النفس، والتطلع إلى حياة أفضل، والاستعداد للتضحية من أجل كرامة الإنسان وعزة الإسلام والمسلمين.

هذا بالنسبة للمقررات والمناهج في المدرسة، فكيف كانت معاملة الأساتذة للتلاميذ في المدرسة، وكيف كان نظامها التربوي؟

5. 1. 2. النظام التربوي في المدرسة القرآنية العصرية:

يقول الشيخ أحمد توفيق المدني " كان مديرنا الشيخ محمد أصفر يحبنا كأبنائه، وكان صارماً في تربيتنا، فإذا تأخر أحدنا عن أوقات الدراسة خمس دقائق يوقّف ربع ساعة وراء الباب ، كان يعلّمنا الحزم والنظام، وكان حريصاً أن ينشّئنا رجالاً أقوياء عاملين، وكان يعتني بتربيتنا في كل النواحي: الخلقية والعقلية والجسمية؛ وكان يقيم لنا تمارين رياضية في كل يوم ربع ساعة بين الدروس في المساء لتربية أجسامنا، وكنا نمشي مشية عسكرية، ويقوي فينا العضلات والحواس بتلك التمارين"(محمد علي دبوز، 1978، ص 176).

معاملة الأستاذ للتلاميذ لها وقع في النفس، والأستاذ المحبوب هو الأستاذ الذي يتخذه التلاميذ قدوةً، وكلامه نافذ إلى قلوب التلاميذ، فالحزم في التعامل أكسب التلاميذ الحزم في الحياة، فالتلاميذ المتخرجين من المدرسة القرآنية العصرية هم الذين تولوا إدارة وتسيير المجتمع، مثل الشيخ أحمد توفيق المدني قد كان على رأس وزارة، ومتخرجين من المدرسة القرآنية العصرية كانوا أعياناً على مدينة القرارة في مزاب أمثال:

- الشيخ حمو بن عيسى المرموري.
- دحمان بن الحاج بكير المرموري.
- بابه بن الحاج إبراهيم أبو سحابة(محمد علي دبوز، 1978، ص176).

وأمثال مفدي زكرياء كان مناضلاً فذًا للجزائر وللقضية المغربية(محمد علي دبوز، 1978، ص 242).

فالنظام التربوي للمدرسة القرآنية العصرية أكسب التلاميذ أكسب التلاميذ قيماً اجتماعية كحسن الإدارة، وحسن التدبير، والاعتماد على النفس، والحزم في القرارات، وحب الوطن، والاعتزاز بالانتماء الإسلامي .

5. 2. **النظام الداخلي للبعثة العلمية بتونس**:

من مقابلة قام بها الشيخ محمد علي دبوز مع أبي اليقظان لم يذكر تاريخها. روى النظام الداخلي للبعثة العلمية.

يبدأ اليوم بصلاة الجماعة في مسجد المزابيين بتونس، وإمامهم أبو اليقظان، بعده الذهاب إلى المدرسة للتلاميذ الصغار أو الجامعة بالنسبة للطلبة الكبار. من الخامسة مساءً إلى وقت صلاة المغرب كل تلميذ

يقوم بواجباته المنزلية، ويراجع درسه القديم ويحضر لدرسه الجديد. لأبي اليقظان درساً يدوم ساعةً بعد صلاة العِشاء وقبل العَشاء، وكانت مواضيع الدرس متمحورة بين:

- العقيدة الإسلامية، معتمداً على كتاب " عقيدة العزابة"(كتاب في العقيدة للشيخ عمر بن جميع).

- الفقه قسم العبادات معتمداً على كتاب " جامع أركان الإسلام"(كتاب في الفقه للشيخ ناصر بن سليمان الخروصي).

- التربية والآداب معتمداً على كتاب " تلقين الصبيان"(كتاب في التربية والآداب للشيخ عبد الله بن حميد السالمي).

وفي ليلة الجمعة تكون خاصة بختمة للقرآن الكريم، وفي صبيحة الجمعة تكون لغسل الثياب والنظافة وترتيب دار البعثة العلمية، وفي مساء يوم الجمعة كل التلاميذ والطلبة يذهبون إلى الحمام للاستحمام وبعد الحمام جلسة مرح وأناشيد وطنية مع أبي اليقظان إلى وقت صلاة المغرب، وفي الليل درس في الأخلاق لأبي اليقظان (محمد علي دبوز، 1978، ص121-222).

في برنامج البعثة العلمية نلاحظ أن أبا اليقظان اعتمد على التربية الدينية بالاعتماد على العقيدة التي ترسخ في النفس الاتكال على الخالق سبحانه وتعالى، كما تقوي في النفس الشجاعة وعدم الخوف من الإنسان، وفقه العبادات ترسخ القيم الدينية الإسلامية في تلاميذ البعثة، واعتمد أبو اليقظان على التربية الوطنية والآداب والأخلاق بواسطة الدروس في الآداب والأخلاق والأناشيد الوطنية والشجاعة الأدبية والقوة البدنية استعداداً لتخليص الجزائر من أيدي الظلم والاستعمار، ترسخ القيم الوطنية، وهذا البرنامج الأسبوعي الثري بالنشاط العلمي والأدبي أدى إلى ميلاد جمعية أدبية لتلاميذ البعثة.

فما هي هذه الجمعية وفيمَ يتمثل نشاطها؟

5. 3. **الجمعية الأدبية في دار البعثة العلمية المزابية**:

لقد كان للجمعية الأدبية في دار البعثة العلمية في تونس دور هام في تطوّر البعثة وزرع الثقافة العربية والوطنية في النفوس وهي منتجة لأفكار ومشاريع تربوية واجتماعية وسياسية، حيث كان للجمعية نشاطات أدبية ثقافية واجتماعية، وإحياء حفلات أدبية في المناسبات الدينية والوطنية ففيها تنظم القصائد وتلحن أناشيد حماسية ووطنية وتقام المسرحيات لعرض واقع المجتمع الجزائري والإسلامي وحقيقة الاستعمار الفرنسي من أجل إيقاظ الهمم وبث روح الوطنية في نفوس التلاميذ. (محمد علي دبوز، 1978، ص223).

أسس القائمون على البعثة العلمية أمثال أبو اليقظان والشيخ أبو إسحاق والشيخ عبد العزيز بن يوسف الثميني هذه الجمعية الأدبية وسيلةً ثقافية ليكملوا بها التعليم المدرسي والجامعي، وكانت الجمعية الأدبية مسؤولة على إحياء حفلات للعلماء والزعماء الذين يزورون البعثة العلمية، وقد كان للجمعية الأدبية مجلة تصدر نصف شهرياً أو شهرياً(محمد علي دبوز، 1978، ص224).

فما هي هذه المجلة وفيما يتمثل دورها التوعوي والوطني؟

5. 4. **مجلة دار البعثة العلمية المزابية (1916 ـ 1962)**:

أصدر طلبة البعثة العلمية المزابية مجلة ناطقة باسمهم تصدر نصف شهرية أو شهرية سموها "الوفاق"، ويشارك في تحريرها الطلبة النشطون في الجمعية الأدبية، ويختارون رئيسها ومحرّرها، كما تطوّرت هذه المجلة وأصبح إسمها "البرق". تعنى المجلة بنشر المقالات الأدبية والقصائد الوطنية والصوّر التاريخية وكل إبداعات الطلبة في البعثة العلمية(محمد علي دبوز، 1978، ص224).

5. 5. **زيارة العلماء والزعماء للبعثة العلمية**:

كثيرا من العلماء والزعماء زاروا البعثة العلمية المزابية في تونس ومن أبرزهم الشيخ عبد الحميد بن باديس وذلك سنة 1922م بدعوة من زميلٍ له كان عضوا في البعثة العلمية، وفي خطابه للطلبة تمنى أن يتقوى الإصلاح وتشب النهضة في كل الجزائر، هذا ما صرّح به الشيخ في الحفلة التي أقيمت له من الجمعية الأدبية بحضور علماء تونس وأعيانها(محمد علي دبوز، 1978، ص225). كما كانت لزعيم الحزب الدستوري الحر عبد العزيز الثعالبي زيارات متعدّدة للبعثة وفي آخر زيارة له للبعثة العلمية قبل مغادرته تونس سنة 1923م خطب في الطلبة خطاباً أودع فيهم آماله وحمّلهم أمانة نهضة الجزائر المباركة(محمد علي دبوز، 1978، ص234).

يروي أبو اليقظان أنه عندما سمع بقدوم سليمان باشا الباروني زعيم الثورة الليبية ضدّ الاستعمار الإيطالي إلى تونس من فرنسا استدعاه إلى دار البعثة العلمية، لكن فرنسا حاصرته في الفندق وأرجعته إلى فرنسا. يقول أبو اليقظان: " لما سمع طلبة بعثتنا بوصول الشيخ سليمان باشا الباروني إلى تونس، ثارت أشواقهم إلى رؤيته، لكن الاستعمار يمنعنا من زيارته أو استقدامه، فأردت أن يرى الطلبة الشيخ الباروني، فعلمت بساعة خروجه من الفندق إلى الباخرة، فخرجا معشر البعثة العلمية المزابية كلّنا، فاصطفّ الطلبة قريباً من المكان الذي يمرُّ منه فرآه الطلبة ورآنا هو، فحيّانا وحيّيناه بالإشارة من بعيد، وكان هذا المشهد ممّا أثّر في نفسي ونفوس الطلبة، لقد رأوا هلع الاستعمار من أبطال الإسلام، وما يلاقيه العظماء في جهادهم، فيرحبون به، وكان لهم هذا دروساً بليغة في التضحية والشجاعة والإقدام"(منير بن سعدون، 2013، ص647).

6.**النشاط الوطني ثم السياسي لكبار الطلبة في البعثة العلمية**:

6. 1. **حزب الدستور الحر**:

في أواخر الحرب العالمية الأولى 1917م أنشأ عبد العزيز الثعالبي حركة تحررية في المغرب الكبير كله، تونس والجزائر، وليبيا، والمغرب، وللحركة فروع في كل هذه الدول. في تونس أنشأ عبد العزيز الثعالبي فرعاً خاصاً بالمزابيين يرأسه الشيخ صالح بن يحي، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي،

يتكون من خمسة أشخاص منهم أبي اليقظان، لم تنجح الحركة التحررية في بلوغ أهدافها فألغيت الحركة وتأسست اللجنة التنفيذية ثم حزب الدستور الحر التونسي سنة 1920م، وكان أبو اليقظان والشيخ

أبو إسحاق والشيخ محمد الثميني أعضاء عاملين في الحزب وهم القائمون على البعثة العلمية المزابية (محمد علي دبوز، 1978، ص234).

كان أبو اليقظان وكبار الطلبة في البعثة العلمية المزابية على صداقة قوية مع بعض أعضاء اللجنة التنفيذية البارزون: أحمد الصافي، محمد الرياني، صالح فرحات، أحمد توفيق المدني، وغيرهم. واستمرّ عمل أبي اليقظان في الحزب يؤيده إلى أن استقرّ في الجزائر وأنشأ المطبعة العربية سنة 1931م(محمد علي دبوز، 1978، ص235). كان أعضاء البعثة العلمية العاملين في حزب الدستور الحر شديدي الصلة بالحزب ومن المناصرين له وبقوة أمثال: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، فقد كان يحارب بعنف وشدّة أعداء حزب الدستور وكان ذلك سبباً في نفيه من تونس إلى مصر سنة 1923م(محمد علي دبوز، 1978، ص235).

6. 2. **زعماء في حزب الدستور الحر أثروا في البعثة العلمية**:

6. 2. 1. الشيخ عبد العزيز الثعالبي:

الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسّس حزب الدستور الحر في تونس، كان وطنياً في أفكاره وأفعاله وقد سافر إلى فرنسا سنة 1919م للتّعريف بقضية تونس، وفي هذه السفريّة ألّف كتاباً بعنوان " تونس الشهيدة" تُرجم إلى الفرنسية، حيث عرض في الكتاب ممارسات الاستعمار في الإدارة التونسية بالأدلّة والبراهين مما سبّب في سجنه تسعة أشهر، وحين خروجه من السجن كانت الوفود تترى إليه في بيته، وكان أبو اليقظان وكبار البعثة العلمية يحضرون تلك التهاني(محمد علي دبوز، 1978، ص238).

يقول أبو اليقظان: " كُنت وكبار الطلبة في البعثة نسرع كل يوم إلى دار استقبال الشيخ الثعالبي فنحضر خطبه البليغة المؤثّرة، فأتتبّعها وصحبي باهتمام، وكنت أكتب كلماته الجامعة، وفقرات من خطبه العظيمة"(محمد علي دبوز، 1978، ص238). كان الشيخ الثعالبي في أغلب أيام الأسبوع في دار البعثة العلمية يملي مقالاته على أبي اليقظان فيكتبها، وكانت في الردّ على المهاجمين على الحزب وفي ترسيخ القيم الوطنية في الشعب التونسي عبر المقالات الصحفية، وقد اعتبره طلبة البعثة أباً لهم (محمد علي دبوز، 1978، ص232).

6. 2. 2. الشيخ صالح بن يحي:

الشيخ صالح بن يحي من زعماء الإصلاح السياسي، انتقل من مسقط رأسه مزاب إلى تونس للتجارة، وهو عمّ شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء، تعرّف على الشيخ عبد العزيز الثعالبي فكان عضده الأيمن في الحركة الوطنية وثاني رجل في الحزب الدستوري الحر، من المساندين العاملين في إنجاح البعثة العلمية المزابية التي رأسها أبو اليقظان، وكان الواسطة بين الشيخ عبد العزيز الثعالبي والبعثة العلمية.

يقول أبو اليقظان: " لمّا سجنت فرنسا الشيخ صالح بن يحي لجهاده في الحزب الدستوري وأطلقت صراحه، فأسرعت الوفود من أنحاء تونس كلّها تهنئ الشيخ صالح، وكانت داره تعجّ بالزوّار في مختلف الطبقات، وكنت وصحابتي كبار طلبة البعثة العلمية معه عن يمينه وشماله....فيخطب خطباؤهم فيجيبهم

الشيخ صالح، فينقلب المجلس إلى حفل سياسي يشتعل بالحماس والوطنية ... وقد تعلّمنا من الشيخ صالح بن يحي رحمه الله الإخلاص النادر، والعمل لله، والتضحية الكبيرة، والسخاء الحتمي في سبيل الخير والشجاعة والدّهاء السّياسي في الجهاد الوطني"(محمد علي دبوز، 1978، ص237).

6. 2. 3. الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش:

يعتبر الشيخ أبو إسحاق من أعزّ أصدقاء أبو اليقظان، دَرسَا سوياً في معهد الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيش في مزاب (الجزائر)، انتقل إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة وانضمّ إلى بعثة الشيخ أبي اليقظان، من المؤسسين لحزب الدستور الحر، يمتاز بوطنيّته الصادقة وأصالته الإسلامية، يبث روحه في طلبة البعثة العلمية شاحذا هممهم ومهيئاً جيلاً من الطلبة يثورون على الاستعمار الفرنسي في الجزائر ويحملون راية الإصلاح على القطر الجزائري.

نفته فرنسا من تونس إلى مصر لنشاطه السّياسي والوطني وحقده على فرنسا سنة 1923م. وصل الشيخ أبي إسحاق مناء مصر فكتب إلى طلبة البعثة العلمية في تونس رسالةً يقول فيها: " وهكذا لعمري تكون الرحلات كي يكون العاقل بصيراً تشمله آية (فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) (سورة الحج الآية 46) وقد كتبت لكم هذا عساكم تغرسونه في أفئدتكم فيكون لكم تبصرة يوم تعملون لمستقبلكم ووطنكم...." (محمد ناصر،1991،ص26).

عندما صدر قرار إبعاد الشيخ أبي إسحاق عن تونس تصدى للمحاماة عنه المحامي الفرنسي (بارون) وكان المقيم الفرنسي العام قد حدّثه عنه وقال له: "سترى رجلاً يبغض فرنسا بغضاً ليس له نظير، ومع هذا فإن قال لك إنه يحب فرنسا سأتراجع عن قرار إبعاده، مع أني متيقن بأنه لن يقولها"(محمد ناصر، 1991، ص61).

كانت مساهمة الشيخ أبي إسحاق في توجيه الطلاّب وتعليمهم وتربيتهم عظيمة، وكان الجو المتفتح الذي يطبع طلاب البعثة العلمية بطابع الحماسة للحركة الإصلاحية والوطنية من أهم مكتسبات البعثة العلمية، لذا عرفت البعثة هجوماً شرساً من المعارضين للحركة الإصلاحية والوطنية (محمد ناصر، 1991، ص17).

7. **الخاتمة**:

عانت الجزائر من المستعمر الفرنسي، حيث كان العائق الأول في التقدّم والتحضّر في مجالات كثيرة، فكان السبب في الانحطاط من الجانب الاجتماعي والحضاري، وكان المعرقل في الجانب العلمي، وقد سعى لطمس القيم الإسلامية والوطنية بواسطة قانون الإدماج، والأرض المحروقة، وغيرها من القوانين الصادرة من الحكومة الفرنسية.

في ظل هذه السياسات الفرنسية المعلَنَةِ ضدّ القيم الإسلامية والوطنية، وأمام هذا السياق السوسيو تاريخي والاقتصادي والسّياسي فكّر الأجداد في حلٍّ لهذه الوضعية القمعيّة التي يعاني منها المجتمع

الجزائري. إن من أبرز الحلول التي سارع إليها العلماء في المجتمع الجزائري هو الإصلاح الديني والاجتماعي عن طريق العلم ونشره، وتوعية المجتمع في تحصيله، ومن طرق اكتساب العلم البعثات العلمية إلى تونس، ومنها البعثة العلمية المزابية برئاسة أبو اليقظان.

إن المتتبع للحركة التربوية التي رأسها أبو اليقظان في البعثة العلمية المزابية في تونس يلاحظ أن العملية التربوية كانت بعدّة آليات، ففيها آلية المعرفة العلمية عن طريق المدرسة والجامعة، وفيها آلية الكلمة المعبّرة والموجّهة من الزعماء والعلماء، وفيها آلية المشاركة الميدانية . كل هذه الآليات كانت حاضرة في البعثة العلمية المزابية. من هنا كانت القيم الإسلامية بارزة في أعضاء البعثة العلمية كما كانت القيم الوطنية قويّة وراسخة.

أبو اليقظان كان مقتنعاً بأن الاهتمام بالتربية والتعليم هو المخلّص من براثين الاستعمار ومن التخلّف، والانحطاط، وبالتربية والتعليم يُعِدُّ جيلاً من الطّلبة مثقّفٌ وقادرٌ على حمل راية العلم، يخدم وطنه، معتزٌّ بهويّته الإسلامية والوطنية، وهذا ما قامت به البعثة العلمية المزابية في كل برامجها التربوية المتعددة، ونجحت في ذلك بشهادة الواقع الميداني والتاريخي.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- المخطوطات:

1- إبراهيم أبو اليقظان، أهدافي العليا بالعمل في هذه الحياة، (د.ت.ن)، مخطوطة.

- المصادر المطبوعة:

1- محمد علي دبوز، (1974م)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1،ط1،قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

2- محمد علي دبوز، (1976م)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2،ط1،قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

3- محمد علي دبوز، (1978م)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3،ط1،قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

4- محمد علي دبوز، (1980م)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ط1،قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

5- محمد علي دبوز، (1985م)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5،ط1،قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

6- محمد علي دبوز، (2013م)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1.2.3، ط1، الجزائر، عالم المعرفة.

7- يوسف الحاج سعيد، (2006م)، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط2، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.

8- أبو القاسم سعد الله، (1998م)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

9- أحمد فرصوص، (1991م)، الشيخ أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته، قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

10- محمد ناصر، (1991م)، الشيخ إبراهيم أطفيش في جهاده الإسلامي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

11- محمد ناصر، (1980م)، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الجزائر، أحمد زبانة.

12- عبد العزيز خواجة، (2017م)، الضبط الاجتماعي ومعوقاته في المجتمعات التقليدية نظام العزابة وادي مزاب نموذجا. (دراسة سوسيو –أنثروبولوجية)، غرداية، الجزائر، داية للطباعة.

- **المقالات:**

13- محمد ناصر، (جوان 1996م)، العدد 5، الشيخ أبو اليقظان هكذا عرفته، مجلة الموافقات، المعهد العالي لأصول الدين، الجزائر.

14- منير بن سعدون، (2-3 نوفمبر 2013م)، علاقة الشيخ أبو اليقظان بسليمان باشا الباروني، ملتقى الذكرى الأربعين لوفاة شيخ الصحافة الجزائرية الشيخ إبراهيم أبي اليقظان غرداية، الجزائر، نشر جمعية التراث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2020م.

15- الشيخ المولود الزريبي، (1921/04/18م)، عدد 30، الجمعية الصديقية في إحياء اللغة العربية، مقال في جريدة الصديق، الجزائر .

- **المصادر باللغة الأجنبية:**

16- André Coyne : (1879), LE M'ZAB , extrait de la revue africaine, Adolphe Jordan, Alger.

17- Brahim Ben youcef, (1992), LE M'ZAB: Espace et société, Alger, imprimerie Abou daoud.

18- Robin : (1884), LE M'ZAB et son annexion à la France, Alger, libraire de l'académie.